الفصول
في
سيرة الرسول

صلى الله عليه و آله وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصول

في

سيرة الرسول

صلى الله عليه و آله وسلم

تأليف

الإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي

الشركة الجزائرية اللبنانية

SOCIETE ALGEROLIBANAISE

جَمِيع الحُقوق محفُوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

ISBN 9953-81-317-5

4 شارع الهواء الجميل، باش جراح - الجزائر العاصمة

هاتف: 266016 - 267152 (021)

فاكس: 267165 (021)

أبو الفِداءِ بنُ كَثِيرٍ

٧٠١ ـ ٧٧٤هـ/ ١٣٠٢ ـ ١٣٧٣م

حياته:

ولد الحافظ ابن كثير في مفتتح القرن الثامن الهجري، قال في البداية وهو يذكر أحداث سنة ٧٠١: «وفيها وُلِد كاتبهُ إسماعيلُ بن عُمَر بن كثير القُرَشيّ البُصرَويّ الشافعيّ، عفا الله عنه». وكان مولده في «مُجَيدل القرية» التابعة لِبُصْرَى الشام، وهي قرية والدته مَرْيَمَ بنتِ فَرَجِ بن عليٍّ، وكان والدُه قد أُسنِد إليه الخطابة بها، «فأقام بها مُدَّةً طويلة في خَيْرٍ وكفايةٍ وتلاوةٍ كثيرة». وقد حدثنا ابن كثير عن نَسَبه وبعض أخباره وهو يذكر وفاة والده سنة ٧٠٣ فقال: «وفيها تُوفِّي الوالد وهو الخطيب شهاب الدين أبو حَفْصٍ عُمَر بن كثير بن ضَوٍّ بنِ درْعٍ القُرَشيّ، من بني حصلة، وهم ينتسبون إلى الشرف، وبأيديهم نَسَبٌ، وقف على بعضها شيخُنا المِزّي فأعجبه ذلك وابتهج به، فصار يكتب في نَسَبي بِسَبَبِ ذلك: «القُرَشِيّ». ثم يذكر أنّ الأسرة انتقلت بعد ذلك إلى دمشق صُحبَةَ شَقِيقهِ عبدالوهاب سنة ٧٠٧هـ، يقول ابن كثير: «وقد كان لنا شقيقاً، وبنا

رفيقاً شفوقاً. وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين، فاشتغلت على يديه في العلم، فَيَسَّر الله تعالى منه ما يَسَّر، وسَهَّل منه ما تعَسّر».

وفي دمشق لَقِيَ ابنُ كَثِيرٍ عالماً من الشيوخ، وكانت دمشقُ آنذاكَ مركزاً أَصِيلاً من مراكز العِلْمِ في العالم الإسلامي، كانت تَحفِلُ بدور القرآن، ومعاهد العلم من المدارس والمساجد، ولقد أفاد ابن كثير من لقاء أعلام عصره، وكان أعظمُ شيوخه أثراً في حياته واتجاهه شيخه الحافظ أبا الحجاج المِزِّي، الذي أَصْهر إليه، وَتَزَوَّج ابنته زينب، وكان لصحبته له وقُرْبِهِ منه أثر واضِحٌ في مؤلفاته. هذا ولم يمض وقت حتى صار علماً من أعلام دمشق، وأقبل عليه الطلبة، ثم تولّى كما قال النُّعَيمي مشيخة أم الصالح بعد موت شيخه الذهبي (٧٤٨هـ)، ومشيخة دار الحديث الأشرفية بعد وفاة شيخها تقي الدين السبكي (٦٨٣ ـ ٧٥٦هـ)، وكان ذلك لمدَّةٍ يسيرة، ثم أُخِذَت منه.

هذا ولابن كثير أربعة من الولد: عُمَر (ت٧٨٣)، وأحمد (ت٧٦٥ ـ ٨٠١)، ومحمد (٧٥٩ ـ ١٠٣هـ)، وعبدالوهاب (ت٧٦٧ ـ ٨٤٠)، ترجم للثلاثة الأول ابنُ حَجَرٍ في إنباء الغُمر ٧٥/٢، ٣٩/٤، ٣٢١ ـ ٣٢٢، وترجم السخاوي في الضوء اللامع للثلاثة الأخر في ٢٤٣/١، ١٣٨/٧، ٩٨/٥ .ولم يكن لأحمد شأنٌ في العلم، فأما الآخرون فكانت لهم سماعات، ورُوِي عنهم. وعلّق محمد تاريخاً للحوادث التي كانت في زمنه.

أما عن عقيدته فقد ذكروا أنه كان صحيح الدين، سَلفِيَّ العقيدة، ولعلّ ذلك من آثار صحبته المتقدمة لشيخه أبي العباس أحمد بن تيميَّة، وملازمته لشيخه وصهره أبي الحجاج المِزِّي، ولغير هذين

الشيخين، حتى عُرِفَ بذلك. على أنه قد جَرّى بينه وبين برهان الدين ابن الشيخ شمس الدين المعروف بابن القيم (٧١٩ ـ ٧٦٧هـ) ما حكاه النُّعَيمي بقوله: «وكانت له أجوبة مسكتةٌ، وقد وقع بينه وبين ابن كثير في بعض المحافل، فقال ابن كثير: أنت تكرهني لأني أَشْعَرِيٌّ. فقالَ له: لو كان في رأسك إلى قَدَمِكَ شعر ما صَدَّقك الناس أنكَ أشْعَريّ». (الدارس ٨٩/١). وينبغي أن يُفْهَم كلام ابن كثير على أنه ليس اعترافاً منه بأنه أشعري، وإنما على معنى: أنني لا أجد سبباً يَحملك على كراهيتي إلا أن تكون قد ظننتني أَشْعَرِيّاً! فقال له برهان الدين: ومن يظن ذلك بك؟!

وأما عن مذهبه في الفروع فكان شافعيَّ المذهبِ، وسيتبين ذلك عند الحديث عن مصنفاته.

وقد وافاه الأجل ـ رحمه الله ـ في شعبان سنة ٧٧٤هـ، ودُفِن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيميَّة. رحمه الله رحمةً واسعةً.

شيوخه:

غلب على ابن كثير علمُ الحديث، فقد لَقِي شيوخه، ودارت عليها مُصَنَّفاتُه فَطُبِعت بطابع المحدِّث وإن كانت في التفسير أو الفقه، كما سَنُبَيِّنُه ونحن نعرض كتبه ورسائِلَه، وقد وصفهُ ابن حِجِّي تلميذه فقال: «كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بتخريجها ورجالها، وصحيحها، وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك. وكان يستحضرُ شيئاً كثيراً من [التفسير] والتاريخ، قليل النسيان. وكان فقيهاً جيِّد الفهم، صحيح الدين، ويحيي الليل إلى آخر وقت، ويشارك في العربية مشاركةً جَيِّدةً، ونظم الشِّعر، وما أعرف أني اجتمعت به، على كثرة تَرَدُّدِي إليه، إلا وأخذتُ منه».

وسوف نذكر بعض هؤلاء الشيوخ مُرَتَّبين حسب وَفياتهم:

١ ـ أبو يحيى زكريا بن يوسف بن سليمان بن حَمّاد البَجَليُّ الشافعي نائب الخطابة ومُدَرِّس الطيِّبةِ والأسديَّة. قال ابن كثير: «بقيَّةُ السلف، وله حَلْقَةٌ للاشتغال بالجامع الأُمَوِيِّ يحضُر بها عنده الطلبة. وكان يشتغلُ بالفرائض وغيرها». توفي في الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة ٧٢٢هـ.

٢ ـ أبو نَصر محمد بن محمد بن مُمِيل (٦٢٩ ـ ٧٢٣)، قال ابن كثير: «سمع الكثير، وأسمع وأفاد».

٣ ـ أبو محمد القاسم بن عساكر (٦٢٩ ـ ٧٢٣هـ)، قال ابن كثير: «شيخنا الجليل المُعَمَّر الرُّحْلَةُ». سمع منه بدمشق.

٤ ـ أبو زكريا يحيى بن الفاضل (ت ٦٤٥ ـ ٧٢٤هـ)، قال ابن كثير: «سمع كثيراً وخرَّج له الذهبي شيئاً، وسمعنا عليه الدارقطني وغيره».

٥ ـ محمد بن عُمَر بن عثمان بن عُمَر الصِّقَلِّي ثم الدمشقي (ت٧٢٥هـ)، قال ابن كثير: آخر من حَدَّث عن ابن الصلاح ببعض سُنَن البَيْهقيِّ، سمعنا عليه شيئاً منها.

٦ ـ إسحق بن يحيى الآمدي (٦٤٠ ـ ٧٢٥هـ). قال ابن كثير كما في الدارس في تاريخ المدارس: «شيخنا المُعَمَّر المسند الرُّحْلَةُ». سمع منه بدمشق.

٧ ـ أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي الهيجاء، المعروف بابن الزرَّاد سمع منه بدمشق.

٨ ـ أبو محمد عبدالوهاب بن ذُؤَيب، ابن قاضي شَهْبَةَ (٦٥٣ ـ ٧٢٦)، قال النُّعَيْميُّ: «وتفقه على كمال الدين ابن قاضي شَهْبَةَ».

٩ ـ شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبدالحليم، ابن تيميَّة (٦٦١ ـ ٧٢٨)، صَرَّح ابن كثير بأخذه عنه في البداية ١١٤/١٤، ١٢٧. وقال ابن قاضي شهبة في طبقاته: «كانت له خُصُوصيَّةٌ بابن تيميَّة ومناضلة عنه، وأتباع له في آرائه».

هؤلاء بعض شيوخه، وقد أجاز له بمصر أبو موسى القرافي، والحسيني، وأبو الفتح الدبُّوسي، وعلي بن عمَر الواني، ويوسفُ الخَتَني.

تلاميذه:

أما تلاميذه فكثيرون، ويمكن لمن أراد أن يتعرّفهم الرجوعُ إلى أنباء الغُمر، والدرَر الكامنة لابن حجر، والضوء اللامع للسخاوي.

مؤلفاته:

ـ البداية والنهاية، ـ الكواكب الدراري، ـ كتاب السيرة المطول، ـ «اختصار السيرة النبوية»، ـ سيرة أبي بكر، ـ سيرة عُمَر بن الخطاب المفردة، ـ مسند الشيخين أبي بكر وعُمَر، ـ طبقات الفقهاء الشافعيين، ـ الواضح النفيس في مناقب ابن إدريس، ـ شرح التنبيه، ـ تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب، ـ اختصار علوم الحديث، ـ جامع المسانيد، ـ التكميل في معرفة الثقات والضُعَفاء والمجاهيل، ـ الأحكام الصغرى في الحديث: كذا ذكره حاجي خليفة، ـ الأحكام الكبرى، ـ شرح صحيح البخاري، ـ المقدّمات، ـ الاجتهاد في طلب الجهاد، ـ سيرة منكلي بغا، ـ مسألة في السماع، سماع الغناء بالألحان، ـ مولد رسول الله ﷺ، ـ أحاديث التوحيد والردّ على الشرك، ـ كتاب العقائد، ـ كتاب في الصيام.

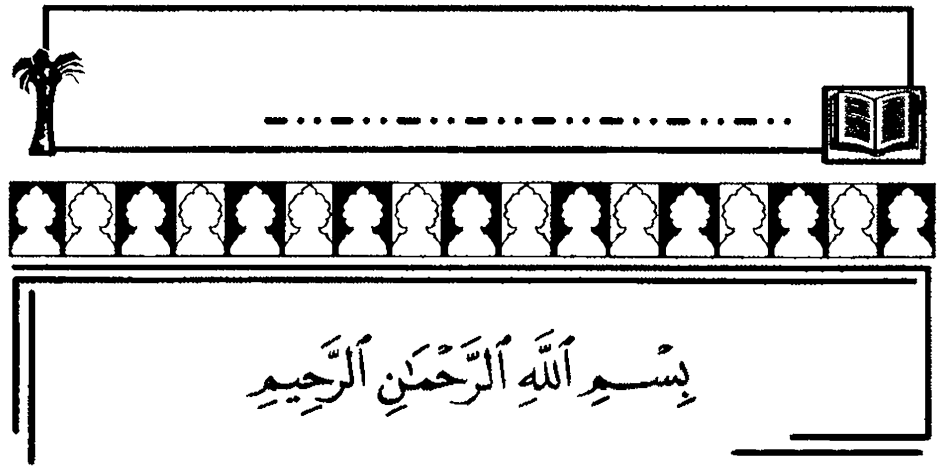

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حَسْبِيَ اللَّهُ، وكَفىٰ.

قالَ شيخُنا، الإمامُ، العالمُ، العَلاّمةُ، عِمادُ الدينِ أَبو الفِداءِ؛ إِسْماعيلُ بنُ عمرَ بنِ كثيرِ الشافعي، مَتّعَ اللَّهُ تعالىٰ بِبقاءِهِ، وفوائِدِهِ. آمين:

الحمدُ للَّهِ، وسلامٌ علىٰ عبادِهِ الذينَ اصْطفىٰ، الحَمْدُ للَّهِ حَمْداً كَثيراً طيِّباً مباركاً فيه، كما يُحِبُّ ربُّنا ويَرضىٰ.

وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، شَهادةَ مَنْ أَخْلَصَ لهُ قَلبُهُ، وانْجابَتْ عنهُ أَكْدارُ الشِّركِ وصفىٰ، وأقرّ لهُ بِرِقّ العُبودِيّة، واسْتَعاذَ بِه مِن شرِّ الشيطانِ والهوىٰ، وتَمَسَّك بحَبْلِهِ المتين المُنزَّل علىٰ رَسولهِ الأمين؛ مُحَمّدٍ خيرِ الورىٰ، صَلواتُ اللَّهِ وسَلامُهُ عليهِ دائماً إلىٰ يوم الحَشْرِ واللقا.

ورَضِيَ اللَّهُ عنْ أَصحابِهِ، وأَزْواجِهِ، وذُرّيتِهِ، وأَتْباعِهِ أَجْمعين؛ أُولي البَصائرِ والنُّهىٰ.

أما بَعد:

فإنه لا يَجمُل بأولي العِلْم إِهْمالُ مَعْرِفةِ الأيّام النَّبويّةِ، والتواريخِ الإِسْلامِيّة، وهي مُشْتَمِلةٌ علىٰ عُلومٍ جَمّةٍ، وفوائِدَ مُهِمّةٍ، لا يَسْتَغني

عالِمٌ عنها، ولا يُعْذَرُ في العِزو منها. وقد أَحْبَبْتُ أنْ أُعَلِّقَ تَذْكِرةً في ذلكَ؛ لِتَكونَ مَدْخَلاً إليه، وأُنْموذَجاً وعَوْناً لهُ وعليهِ، وعلىٰ اللَّهِ اعْتِمادي، وإليهِ تفويضي واسْتِنادي.

وهي مُشْتملةٌ علىٰ ذِكْرِ نَسَبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وسيرَتِهِ، وأَعْلامِهِ وذِكْرِ أيامِ الإسلامِ بَعْدَه إلىٰ يَوْمِنا هذا، مما تَمَسُّ حاجَةُ ذوي الإرَبِ إلَيهِ علىٰ سَبيلِ الاختصارِ، إنْ شاءَ اللَّهُ تعالىٰ.

ذكر نسبه ﷺ

هو سيدُ ولدِ آدم: أبو القاسم؛ **محمدٌ**، وأحمدُ، والماحي؛ الذي يُمحىٰ به الكفرُ، والحاشرُ؛ الذي يَحشرُ النَّاسَ، والعاقبُ؛ الذي ليس بعدَهُ نبيٌّ، والمقفِّيّ، ونبيّ الرحمة، ونبيّ التوبة، ونبيّ المَلحَمة.

ابنُ عبدِالله، وهوَ أخُو الحَارثِ، والزُّبير، وحَمْزَة، وأَبي طَالِب، واسْمُه: عبدُ مَنَافٍ، وأبي لهبٍ، واسْمُهُ: عبدُ العُزّىٰ، وعبدُ الكَعْبَة، وهو: المقوَّم، وقيل: هما اثنان، وحَجْل، واسمُه: المُغيرَة، والغَيْدَاق، وسُمِّيَ بذلك لِكَثْرَةِ جُودِهِ، وأَصْلُ اسْمِهِ: نَوفَل، وقيل: إنّه حَجْلٌ، وضِرار.

وصَفِيّة، وعَاتِكَة، وأَرْوىٰ، وأُمَيْمَة، وبَرّة، وأُمّ حَكِيم، وَهي: البَيْضَاء، هؤلاء كلُّهُم أولاد: **عَبْد المُطّلب**، واسمُهُ: شَيْبَةُ الحَمْدِ علىٰ الصحيح.

ابن هاشم واسمُهُ: عَمْرو، وهُوَ أَخُو المُطّلِب ـ وإليهما نَسَبُ ذي القُرْبىٰ ـ وعَبْدِ شَمْسٍ، ونَوفلٍ، أربعتُهم أبناءُ:

عبدِ مَنافٍ أخي عبد العُزَّىٰ، وعبد الدار، وعَبْدٍ، أبناءِ:

قُصَيٍّ، واسمُه: زَيد، وهُو أَخُو زُهْرة ابنا:

كِلابٍ أخي تَيْم، ويَقْظةَ أبي مَخْزومٍ، ثلاثتُهم أبناءُ:

مُرّة أخي عَدِيٍّ، وهُصَيص، وهم أبناءُ:

كعبٍ أخي عامرٍ، وسامةَ، وخُزيمةَ، وسعدٍ، والحارثِ، وعوفٍ، سبعتُهم أبناءُ:

لؤيٍّ أخي تيمٍ الأدْرمِ. ابْنَيْ:

غالبٍ أخي الحَارثِ، ومُحاربٍ، بَني:

فِهر أخي الحارث ابنَي:

مالك أخي الصَّلْت، ومَخْلَدَ، بني:

النَّضر أخي مالك، ومَلْكَان، وعبدِ مناةَ، وغيرِهم، بَني:

كِنانة أخي أَسَدٍ، وأَسَدَة، والهُون، بني:

خُزَيمة أخي هُذَيل:

ابنِ مُدرِكَة، واسمُهُ: عَمْرو، وهو أخو طَابِخةَ، واسمُه: عَامِر، وقِمَّعةَ، وثلاثتهُم أبناء:

إلياسَ، أخي النّاسّ، وهو: عَيْلاَن؛ وَالِدُ قَيْسٍ كُلِّها، كِلاهُما ولَدُ **مُضرَ** أخي رَبيعةَ، وهما الصّريحَان من وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وأخي أَنْمارٍ، وإيادٍ، وقد تيامَنا، أَرْبعتُهم أَوْلادُ:

نزارٍ أخي قُضاعَةَ في قولِ أَكْثر أَهْلِ النَّسبِ، كِلاهُما ابنا:

مَعَدِّ بن عَدْنَان.

فَجميعُ قَبائِلِ العَربِ يَنْتَسِبُون إلىٰ مَن ذكرتُ من أَبْناءِ عَدْنانَ.

وقد بَيَّنَ ذلك الحَافِظُ أَبو عُمَرَ النَّمَرِيُّ في كِتابِ «الإِنْباهِ بِمَعْرِفَة قَبائِلِ الرُّواةِ» بَياناً شَافِياً ـ رَحِمَهُ الله ـ:

وقُرَيْشٌ عَلَىٰ قَوْلِ أَكْثَرِ أَهْلِ النَّسَبِ، هُمُ الذينَ يَنْتَسِبُونَ إِلىٰ فَهْرِ بنِ مَالِكِ بنِ النَّضْرِ بن كِنانَة وأَنْشَدُوا في ذَلكَ:

قُصَيٌّ لَعَمْري كَانَ يُدْعَىٰ مُجَمِّعاً بِهِ جَمَعَ اللَّهُ القَبَائِلَ مِنْ فِهْرِ

وقيل: بَلْ جِمَاعُ قُريشٍ هو النَّضْرُ بنُ كِنانَة، وعَلَيهِ أَكْثَرُ الفُقَهاءِ والمُحَقِّقين.

واسْتُدِلَّ علىٰ ذلك بِالحَديثِ الّذي ذَكَرهُ أَبو عُمَرَ بنِ عَبْدِالبرّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عن الأَشْعَثِ بنِ قَيْسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ ـ قال: قَدِمْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ في وَفْدِ كِنْدَة، فقُلتُ: أَلَسْتُم مِنّا يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «**لا، نَحْنُ بَنُو النَّضرِ بنِ كِنَانَةَ؛ لا نَقْفُو أُمَّنَا، ولا نَنْتَفي مِنْ أَبِينَا**». وقد رواه ابنُ مَاجَه في «سننه» بِإِسْنادٍ حَسَنٍ. وفيه: فَكَانَ الأَشْعَثُ يقولُ: لا أُوتَىٰ بِرَجُلٍ نَفَىٰ رَجُلاً من قُرَيْشٍ مِنَ النَّضْرِ بنِ كِنانَةَ إِلاَّ جَلَدْتُه الحَدَّ.

وقيل: إِن جِمَاعَ قُريشٍ إِلْياسُ بنُ مُضَر بنِ نِزارٍ. وقيل: بَلْ جِماعُهم أَبُوهُ مُضَرَ. وهما قَولاَن لِبَعْضِ أَصْحَابِ الشافعي، حكاهما أبو القاسِمِ؛ عَبْدِالكَريمِ الرّافِعِي في «شرحه» وَجْهَين، وهُمَا غَريبانِ جِداً.

فأما قَبائِلُ اليَمَنِ؛ كَحِميَر، وحَضرَمَوْت، وَسَبَأْ، وغَيْرَ ذلك، فأُولَئِكَ من قَحطَانَ، لَيْسُوا من عَدْنان. وقُضَاعةُ فيها ثَلاثَةُ أَقْوالٍ. قيلَ: إِنّها من العَدْنانية. وقيل: قَحْطَانِيَّة. وقيل: بَطْنٌ ثَالِث؛ لا من هَؤُلاءِ وَلا من هَؤُلاءِ، وَهُو غَرِيبٌ، حَكَاهُ أَبو عُمَر، وَغَيْرُه.

فصل

[نسبه ﷺ بعد عدنان]

فهذا النَّسَبُ الذي سُقناهُ إِلَىٰ عَدْنَان لا مِرْيَةَ فيه، ولا نِزَاعَ، وهو ثَابِتٌ بالتَّواتِرِ والإِجمَاعِ.

وإنّما الشَّأنُ فيما بعْد ذلك، لكن لا خِلافَ بَيْنَ أَهْلِ النَّسَبِ وغَيرِهم من عُلمَاءِ أَهْلِ الكِتابِ أَنّ عَدْنانَ من وَلَدِ إِسْمَاعيل؛ نَبِيِّ اللَّهِ، وهُو الذَّبيحُ علىٰ الصّحِيحِ من قَوْلَي الصّحَابَةِ والأَئِمّةِ، وإِسْماعيلُ بنُ إبراهيم؛ خَليلِ الرحْمنِ عَلَيهِ أَفْضَلُ الصلاةِ والسلامِ.

وقد اختُلِف في كُل أبٍ بينَهما؟ علىٰ أقوال:

فأكثر ما قيل: أَرْبَعونَ أباً، وأقل ما قيل: سَبعةُ آباءٍ. وقيل: تِسْعَة. وقيل: خَمسةَ عَشَر، ثم اختُلِف في أَسْمائِهِم.

وقد كَرِهَ بَعضُ السَّلَفِ والأئِمة الانْتِسابَ إلىٰ ما بعد عَدْنَان، ويُحكىٰ عن مالك بنِ أنسٍ الأَصْبَحي الإِمام ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ أَنهُ كَرِهَ ذلك.

قال الإمامُ أبو عُمَرِ ابْنِ عَبدِالبر في كتابِ «الإِنباه»: والذي عليهِ أئمةُ هذا الشأنِ في نَسَبِ عَدنانَ قالوا: عدنانُ بن أُدَدْ بن مقوِّم بن ناحور بن تَيْرح بن يَعْرِب بن يَشْجُب بن نابتِ بن إسماعيلِ بن إبراهيم خليلِ الرّحمٰنِ بن تارح ـ وهو: آزَرُ ـ بنُ ناحُورِ بنِ شاروخِ بنِ راعو بنِ فالِخ بن عَيْبَر بنِ شَالَخ بن أَرْفَخْشَذ بن سام بن نوح بن لامك بن مَتُوشَلَخَ بن خَنُوخ ـ وهو: إدريسُ النّبيُّ ﷺ فيما يزعُمون، واللَّهُ أَعلَم، وهو أوّلُ بني آدم أُعطي النُّبُوة بعدَ آدمَ وشَيثَ، وأَوّلُ من خَطَّ بالقلمِ ـ ابن يَرْد بن مَهْلَيلِ بنِ قَيْنَن بن يَانِش بن شيثِ بن آدم ﷺ.

هكذا ذكرهُ مُحمّدُ بنُ إِسْحاقُ بنِ يَسارِ المَدَنيِ صَاحبُ «السِّيرةِ النَّبويَّة» وغيرُه من عُلَماءِ النَّسَبِ.

وقد نظَّمَ ذلكَ أَبو العَبّاسِ؛ عَبدُاللَّهِ بنُ مُحمَّدِ الناشي المَعْتَزلي في قصيدَة يمدحُ فيها رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وقد أوردَها الإِمام أبو عُمر، وشيخُنا في «تهذيبِهِ»، وهي قصيدَةٌ بَليغةٌ، أولها:

مَدَحْتُ رَسُولَ اللَّهِ أَبْغي بِمَدْحِهِ وُفورَ حُظُوظي مِنْ كَرِيمِ المَآرِبِ
مَدَحْتُ امْرَءاً فَاقَ المَديحَ مُوَحَّداً بِأَوْصَافِهِ عَنْ مُبْعِدٍ وَمُقَارِبِ

فجميعُ قبائلِ العَربِ يَجْتمعُونَ معهُ في عَدْنانَ، ولهذا قالَ اللَّهُ تَعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، قال ابنُ عباسٍ رَضي اللَّهُ تعالىٰ عنهما: لم يَكُنْ بَطْنٌ من قُريشٍ، إلا ولِرسُولِ اللَّهِ ﷺ فيهم قرابةٌ [البخاري: (٤٨١٨)]. وهو صَفْوةُ اللَّهِ منهم؛ كما رواهُ مُسلمٌ في «صحيحه» عن واثلةَ بنِ الأسْقعِ ـ رضي الله عنه ـ قال: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَ كِنَانَةَ من وَلَدِ إِسْمَاعيلَ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْ كِنَانَةَ قُريشاً، ثم اختارَ من قُرَيشٍ بني هاشِمٍ، ثُمّ اختارَني من بَني هَاشمٍ»** [مسلم: (٢٢٧٦)].

وكذلك بَنو إِسْرائيل أنبياؤُهم وغيرُهم يَجْتمِعُون معه في إبراهيمَ الخليلِ عَليهِ الصّلاةُ والسلام، الذي جَعَلَ اللَّهُ في ذُريته النُّبُوَّةَ والكتابَ.

وهكذا أمرَ اللَّهُ سُبحانَهُ وتعالىٰ بني إِسْرائيلَ عَلىٰ لسانِ موسىٰ ـ عليه السلام ـ، وهو في التوراةِ كما ذكرهُ غيرُ واحدٍ من العلماءِ ممن جَمَعَ بِشاراتِ الأنبياءِ بهِ ﷺ، إن الله تعالىٰ قال لهم ما معناه: سَأُقيمُ لَكُمْ من أَوْلادِ أخيكُم نبيّاً كلُّكم يسمعُ له، وأجْعَلُهُ عَظيماً جداً.

ولم يولَدْ من بني إِسْمَاعيل أَعْظَمُ من مُحَمَّدٍ ﷺ، بل لم يُولَدْ

من بني آدمَ أحدٌ ولا يولَدُ إلىٰ قيامِ الساعة أعظَمُ منه ﷺ.

فقد صحّ عنه أنهُ قال: «**أنا سيّدُ ولدِ آدمَ ـ ولا فخرَ ـ آدمُ فَمن دونه من الأنبياء تحتَ لوائي**» [أحمد: (٢٨١/١)، والترمذي: (٣١٤٨)].

وصحّ عنه أنه قال: «**سَأَقُومُ مَقَاماً يَرْغبُ إليّ الخَلْقُ كلُّهم، حتىٰ إبْرَاهيم**» [مسلم: (٨٢٠)].

وهذا هو المقامُ المَحْمودُ الذي وَعَدَهُ اللَّهُ تعالىٰ، وهو الشفاعَةُ العُظمىٰ التي يشفَعُ في الخلائق كلِّهم؛ ليريحَهمُ اللَّهُ بالفَصْلِ بينهم من مقامِ المحشرِ، كما جاء مفسَّراً في الأحاديث الصَّحيحَةِ عنه ﷺ.

وأمه ﷺ: آمنةُ بنتُ وهبِ بن عبد منافِ بن زُهرة بن كلاب بن مُرّة.

فصل

[وِلادَةُ رَسولِ اللَّهِ ﷺ ورِضاعَتِهِ]

ووُلدَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يومَ الاثنينِ [أحمد: (٢٧٧/١)، والبخاري: (٣٩٠٦)، ومسلم: (١١٦٢) (١٩٧)] لليلتين خلتا من رَبيعِ الأَوّلِ. وقيل: ثامِنُه. وقيل: عاشِرُه. وقيل: لِثِنْتَي عشرةَ منه. وقال الزُّبيرُ بنُ بكّارٍ: وُلدَ في رَمَضَانَ، وهو شاذٌّ، حكاه السُّهيلي في: «رَوْضِهِ». وذلكَ عامَ الفيلِ، بعده بخمسينَ يوماً. وقيل: بثمانيةٍ وخمسينَ يوماً. وقيل: بعده بعشرِ سنين. وقيل: بعدَ الفيلِ بثلاثينَ عاماً. وقيل: بأربعينَ عاماً.

والصَّحيحُ أنه وُلد عامَ الفيلِ، وقد حكاهُ إبراهيمُ بنُ المنذر الحزامي شيخُ البُخاري، وخَليفةُ بنُ خيّاط وغيرُهما إجماعاً.

وماتَ أبوهُ وهو حَمْل. وقيل: بعدَ ولادتِهِ بأشهرٍ. وقيل: بسنةٍ.

وقيل: بسنتين، والمشهورُ الأوّلُ [مسلم: (١٧٧١) (٧٠)].

واستُرضِعَ لهُ في بني سعدٍ، فأرضَعَتْهُ حَلِيمةُ السَّعدية كما روَينا ذلك بإسنادٍ صحيح، وأقامَ عندها في بني سعدٍ نحواً من أربعِ سنينَ، وشُقّ عن فؤادِهِ هُناكَ، فردَّتهُ إلىٰ أمِّه [أحمد: (١٨٤/٤)، ومسلم: (١٦٢) (٢٦١)]. فخرجَتْ بهِ أمُّهُ إلىٰ المَدينةِ؛ تزورُ أَخْوالَهُ بالمدينةِ، فتُوفيت بالأَبواءِ ـ وهي راجِعةٌ إلىٰ مكةَ ـ ولهُ من العُمرِ ستَّ سنين وثلاثةِ أشهرٍ وعشرةَ أيامٍ. وقيلَ: بل أربعَ سنين [أحمد: (٣٥٦/٥)].

وقد روىٰ مُسلمٌ في «صحيحهِ»؛ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ لما مرّ بالأَبواءِ ـ وهو ذاهِبٌ إلىٰ مكّةَ عامَ الفتحِ ـ استَأْذَنَ ربَّهُ في زيارةِ قبرِ أمِّهِ، فأذِنَ لهُ، فبكىٰ وأَبكىٰ مَن حولَهُ، وكانَ معهُ ألفُ مقنّعٍ. أي: بالحديدِ [مسلم: (٩٧٦)].

فلما ماتَتْ أمُّهُ حَضَنتهُ أمُّ أيمن ـ وهي مولاتُهُ ـ وَرِثَها من أبيهِ [مسلم: (١٧٧١)]، وكَفَلَهُ جدُّهُ عبدُالمطلب، فلما بلغَ رسولُ اللَّهِ ﷺ من العُمُرِ ثماني سنينَ توفي جدُّه، وأوصىٰ بهِ إلىٰ عمِّهِ أبي طالبٍ؛ لأنهُ كانَ شقيقَ عبدِالله فكَفَلَهُ، وحاطَهُ أتمَّ حِياطةٍ، ونصرَهُ حينَ بعثَهُ اللَّهُ أعزَّ نصرٍ، مع أنهُ كانَ مُستمِرّاً علىٰ شركهِ إلىٰ أنْ ماتَ! فخفَّفَ اللَّهُ بذلكَ من عذابِهِ كما صَحَّ الحديثُ بذلك [البخاري: (٣٨٨٣)، ومسلم: (٢٠٩)].

وخرجَ بهِ عمُّهُ إلىٰ الشَّام في تجارةٍ، وهو ابنُ ثِنتيْ عشرةَ سنةٍ، وذلكَ من تمامِ لُطفهِ بهِ؛ لعدمِ مَن يقوم به إذا تركَهُ بمكةَ، فرأىٰ هو وأصحابُهُ ممنَ خرجَ معه إلىٰ الشَّامِ من الآياتِ فيه ﷺ ما زاد عمّهُ في الوصاةِ به، والحِرصِ عليه، كما رواه الترمذي في «جامعهِ»

بإسنادٍ رجالُهُ كلُّهم ثقات، من تظليلِ الغمامةِ له، ومَيل الشجرة بظلِّها عليه، وتبشيرِ بحيرىٰ الراهبِ به، وأمره لعمِّه بالرُّجوعِ به، لئلا تراهُ اليهودُ فيرومونَهُ سوءاً، والحديثُ له أصلٌ مَحفوظٌ، وفيه زياداتٌ أخر [الترمذي: (٣٦٩٩)].

ثم خرجَ ثانياً إلىٰ الشام في تجارةٍ لخديجة بنتِ خُويلد مع غُلامِها ميسرَة علىٰ سبيلِ القِراض، فرأىٰ ميسرةُ ما بهرَه من شأنِهِ، فرجعَ فأخبرَ سيِّدتَه بما رأىٰ، فرغِبَتْ إليهِ أن يَتزَوّجَها؛ لما رَجَتْ في ذلك من الخيرِ الذي جمعَهُ اللَّهُ لها، وفوق ما يخطرُ ببال بشرٍ، فتزوّجها رسولُ اللَّهِ ﷺ، وله خمسٌ وعشرونَ سنة.

وكانَ اللَّهُ سُبحانهُ قد صانَهُ وحَمَاهُ من صِغَرِهِ، وطهَّرهُ من دَنَسِ الجاهليةِ، ومن كلِّ عيبٍ، ومنحَهُ كلَّ خلقٍ جميلٍ، حتىٰ لم يكن يُعرفُ بين قومِهِ إلا بالأمين؛ لما شاهدوا من طهارَتِهِ، وصِدْقِ حديثِهِ، وأمانتِهِ.

حتىٰ إنهُ لمَّا بَنَتْ قريشٌ الكعبةَ في سنة خمسٍ وثلاثين من عُمُرِه، فوصلوا إلىٰ موضِعِ الحجرِ الأسودِ، اشتَجَرُوا فيمن يضعُ الحجرَ موضِعَهُ، فقالت كلُّ قبيلةٍ: نحن نضعُهُ! ثم اتفقوا علىٰ أن يضعَهُ أولُ داخلٍ عَلَيْهم، فَكَانَ رسول الله ﷺ، فَقَالوا: جاء الأمينُ، فرضُوا به، فأَمَرَ بثوبٍ، فوَضَع الحجرَ في وسطِهِ، وأمرَ كلَّ قبيلةٍ أن ترفع بجانبٍ من جوانِبِ الثوبِ، ثم أخذَ الحجرَ، فوضعه موضعَهُ ﷺ [أحمد: (٤٢٥/٣)].

فصل

[مبعثه ﷺ]

ولما أرادَ اللَّهُ تعالىٰ رَحْمةَ العِبادِ، وكرامتَه بإرسالهِ إلىٰ العالمين؛ حبَّبَ إليهِ الخلاء، فكانَ يتحنَّثُ بغارِ حِرَاءٍ، كما كانَ يصنعُ ذلك متعبِّدو ذلكَ الزمانَ، كما قالَ أبو طالبٍ في قصيدتِهِ المشهورةِ اللاميةِ:

وثَوْرٍ، ومَنْ أَرْسَىٰ ثَبيراً مَكَانَهُ وَرَاقٍ لِبِرٍّ فِي حِرَاءٍ، ونَازِلِ

ففجَأَهُ الحَقُّ وهو بغارِ حِراءٍ في رمضانَ، ولهُ منَ العمرِ أربعونَ سنةً، فجاءَهُ المَلَكُ، فقالَ لهُ: اقْرَأْ. قالَ: «**لستُ بقارىءٍ**»، فغتّه [البخاري: (٣)] حتىٰ بلغ منه الجَهْدُ، ثم أرسَلَهُ، فقالَ: اقْرَأْ. قالَ: «**لستُ بقارىءٍ**». ثلاثاً. ثم قالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

فرجَعَ بها رسولُ اللَّهِ ﷺ تَرجُفُ بوادرُهُ، فأَخْبرَ بذلكَ خديجةَ، وقالَ: «**قدْ خشيتُ علىٰ عَقْلي**». فَثَبَّتَتْهُ، وقالت: أَبْشِرْ، كلا، والله لا يُخزيكَ اللَّهُ أبداً؛ إنكَ لتصِلُ الرحِمَ، وتَصدُقُ الحديثَ، وتحملُ الكَلَّ، وتُعينُ علىٰ نوائِبِ الدهرِ في أوصافٍ أُخر جميلة عَدّدتها ـ من أَخْلاقِهِ ـ عليهِ، تصديقاً منها لهُ، وتثبيتاً، وإعانةً علىٰ الحقِّ، فهي أولُ صدِّيقٍ له، رضي الله عنها وأكرمها.

ثم مَكَثَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ ما شاءَ أنْ يمكثَ لا يرىٰ شيئاً، وفترَ عنهُ الوحيُ، فاغتمَّ لذلك، وذَهَبَ مِراراً ليتردّىٰ من رُؤوسِ الجبالِ؛ وذلكَ من شوقِهِ إلىٰ ما رأىٰ أولَ مرةٍ، منْ حلاوةِ ما شاهده من وحيِ اللَّهِ إليه.